المفتّش ليث

أسرار وراء الفرار



بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

وبه نستعين

...المفتّش ليث...

أسرار وراء الفرار

تأليف:

المعتصم باللّٰه المؤمن

كانت الشّمس الحارقة تشوي وجه طارق الذي كان يحفر الطريق الرّيفيّ بجدٍّ وعيناه الطّمّاعتان تلتمعان..

وعلق المعول بين التّراب، وبذل طارق جهداً خارقاً حتّى أخرجه وارتمى إلى الوراء وسقط أرضاً..

ونهض يمسك ظهره واقترب ليرى ما هذا.. كان مجرد حجر، وبذل جهداً ليقلبه عندما لاحظ عليه نقشاً.. ونفض التّراب وقرأ:

اقلبني تعتبر

والتمعت بسمةٌ على وجهه وهو يقلبه.. وما إن انقلب حتّى وجد نقشاً آخر:

افعل الخير ولو كنت على حافّة جهنّم

فانفجر طارق ضاحكاً!.. وأخذته الضّحكة دقائق حتّى سقط على الأرض ثمّ تمالك نفسه وهو يقول:
- يا لروح الدّعابة التي يملكها صاحب هذا النّقش!.. على حافّة جهنّم.. كم هو سخيف!

ورفع المعول بقوّةٍ وانهال به على الحجر حتّى فلقه نصفين وهو يقهقه ويقول:
- خذ هذا يا صاحب الحجر، كي تتعلّم في المرة المقبلة ألاّ

تنصح مجرماً!

وحلّ اللّيل وهو يحفر.. وأشرقت الشّمس وهو ينتظر.. ووقف يمسح العرق وينظر في وهج الشّمس.. وأخيراً سمع صوت سيّارةٍ تقترب فاندسّ وراء الشّجر..

كانت سيّارةً سوداء فارهة ذات نوافذ سوداء وطلاءٍ لمّاعٍ.. واقتربت وصوت الأغاني يصدح منها عندما وقعت في الفخّ وانحدرت إطاراتها الأماميّة في الحفرة..

ولكنّ السّائق الحاذق أدرك وجود الحفرة في اللّحظة الحاسمة فأطلق محرّك السّيّارة القويّ إلى الوراء ونجا..

نجا من الحفرة ولكنّه وجد نفسه عالقاً على الأرض الذي مرّ بها كالسّهم منذ برهة.. ولم يدرك ماذا حدث قبل أن يطفئ الأغاني ويسمع صوت الهواء وهو يتسرّب بعنفٍ من إطارات السّيّارة الأربع، فأدرك أنّه وقع في الفخّ!

ففتح النّافذة قليلاً وأخذ يرشق طلقات مسدسه يميناً ويساراً، عندما أحسّ رصاصةً مرّت جوار رأسه من الجانب الأيمن فالتفت يرشق طلقاته إلى اليمين عندما أحسّ برصاصةٍ من اليسار.. وهنا فقد الحيلة وقد فقد مسدسه الرّصاص!

فخرج من سيّارته بهدوءٍ مستسلماً يبحث بعينيه عن غرماءه

عندما قفز عليه غريمه طارق من فوق السّيّارة وما هي إلّا لحظاتٌ قبل أن يجرّه إلى كوخه المتواضع في طرف الغابة..

امتدّت أشعة المغرب إلى وجه ذاك السّائق الذي فتح عينيه يشكو آلام رأسه ويدور بعينيه متفحّصاً المكان المظلم القديم عندما رأى ذاك الوجه الكالح في طرف الكوخ وهو يعدّ الدّولارات التي وجدها في جيب ضحيّته وسيّارته.. أمّا بيع قطع السّيّارةِ الفارهة، فهو أجمل هديّةٍ تهدى لطارق !

دولارات.. دولارات.. اخضرّت الدّنيا في عينيّ ذاك اللّصّ النّذل وهو يحلم ويحلم.. ونهض مترنّحاً إلى ضحيّته ليضع عينيه السّكرتين في عينيه ويتذكّر تلك الجملة:

افعل الخير ولو كنت على حافّة جهنّم

ولكنّه انفجر مردّداً تلك الكلمات ساخراً وأضاف إليها صفعةً أهداها لضحيّته وضحكةً رنّت في الكوخ وهو يقول:
- هل خطر في بالك يوماً أنّك دولاراتٌ تمشي على الأرض؟!.. أبوك سيدفع بسخاء.. بسخاء!

وانفجر يضحك بجنون العظمة عندما أجابته ضحيّته بكلّ هدوء:
- أبي.. ألا تظنّ أنّك تبالغ بكلّ هذا الضّحك؟!

فانفجر طارق ضاحكاً وصفع ضحيّته قائلاً:
- اخرس.. من سمح لك بالكلا.....

وخمد صوت طارق تدريجيّاً وهو يدرك تلك الكلمات وذلك الصّوت.. فنزع اللّثام عن وجه ضحيّته مسرعاً وفتح فمه متدليّاً عندما رأى وجه ابنه منتفخاً من ضرباته فصاح متلعثماً:
- وليد؟؟.. ما.. ماذا جاء بك إلى سيّارةٍ فارهةٍ و..و...

وجمدت الكلمات في فمه عندما شعر بمسدّسٍ من خلفه ولم يستطع أن يلتفت ولكن استطاع أن يسمع صوتاً رخيماً يقول له:
- أسلم تسلم!

كانت البسمة الهادئة تزيّن وجه القائل وهو يردّد:

- **افعل الخير ولو كنت على حافّة جهنّم!..** ضربت ابنك ووقعت في الفخ.. وكنت ستسلم لو فعلت الخير وأنت على حافّة هذه الجهنّم!

وبعد أن أوثق القيد يديّ طارق التفت ليرى ذلك الوجه.. وجه المفتّش ليث الذي كان يبتسم ابتسامةً عريضةً وهو يقول:

- أتدري أنّنا حقّقنا سبقاً..خطفنا ابنك قبل أن تخطفه!.. وكم أسعدني رؤية وجهه سعيداً عندما تركناه يهرب في سيّارةٍ فارهة!!.. وأظنّك أعجبك طعم هذا الطّعم يا سيّد طارق!

فصرخ طارق بغيظ:

- أيّها البغيض الماكر!.. كيف عرفت نيّتي أصلاً؟

- تتكلّم وكأنّنا في عصور ما قبل التّاريخ!.. كشفتك محاولتك الفاشلة السّابقة وجعلتك تحت مراقبتنا نحن رجال الشّرطة وبذا تكفي كلمةٌ واحدةٌ كتبتها لابنك على الواتس آب حتّى تكشفك!

وابتسم المفتّش وقال:
- تحسب أنّ تلك الأداة الشّيطانيّة لتتراسل بينك وبينه فقط؟!..التخلّف عيبٌ على المجرمين.. باختصار، حتّى المجرم عليه أن يحمل شهادة تكنولوجيا!

وضحك المفتّش الوسيم وهو يسمع صراخ طارق:
- تظنّ أنّك نجحت؟.. سترى!
- نجحت؟!.. لا، أنا لم أبدأ أصلاً، فكيف أكون نجحت؟!

واكفهرّ وجه طارق وابنه، والمفتّش يقترب منهما وانتزع المفتّش جهاز التعقّب عن وليد وعيناه تتكلّمان ولسانه يقول:
- النّجاح غاية، ويحتاج إلى بداية!!!

....

كانت شروقاً جميلاً للشّمس لو كان المساعد سامي متفرّغاً لرؤيته ولكنّه كان يجوب المنطقة بالسّيّارة وهو يتأفّف ويقول:

- طبعاً.. هذا هو المفتّش ليث، ما إن يثبت نظريةً له حتّى يختفي هو والمجرم.. وأنا.. وأنا عليّ أن أسوح الشّوارع ليلاً لأبحث عنه.. متى سيحفظ الضّابط سليم أنّ هذا هو ديدن المفتّش ليث ويتركني.. هفففففف..

ونزل المساعد يمسح المنطقة بعينيه سئماً ومشى خطوتين قبل أن يجد نفسه يتدحرج في حفرة.. ونهض متأوّهاً رافعاً رأسه إلى السّماء وهو يقول:
- يا ربّي.. لقد أشرقت الشّمس ولم تنم عيني.. طبعاً سأعمى وأقع في الحفرة و... ويغمى عليّ أيضاً!

واستلقى متوسّداً حجراً وهو يبتسم ويسلم عينيه للنّوم وما هي إلّا دقائق قبل أن يسمع صوتاً يناديه:
- سامي!.. المسكين، لقد انزلق وسقط!

وسكت الصّوت الماكر قبل أن يردف:
- آه.. كم سيكون حاله محزناً لو رآه الضّابط سليم وهو يستغلّ هذه الفرصة الذّهبيّة.. أقصد التّرابيّة!

فانتفض المساعد وقال:
- المفتش ليث!.. من قال أنّني يقظ؟.. أ.. أقصد.. كيف عرفت ذلك؟؟

فضحك المفتّش وقال:

- تقصد من الأبله الذي لا يعرف ذلك؟!.. أراك تدحرجت وضربت رأسك بالحجر هكذا وأغمي عليك ومع ذلك لا أثر للدّم ولا للألم على وجهك؟!

فنهض المساعد ينفض التّراب عندما قال له المفتّش:
- يا مسكين.. كيف وجدتّ جهنّم؟
- هل سيطر عليّ النّعاس أم أنّك تقول جهنّم؟؟
- بل أقول جهنّم.. فأنت كنت مسنداً رأسك إلى حافّة جهنّم!
- حافّة ماذا.. هل تسمّي هذا مزاحاً يا سيادة المفتّش؟!
- أنا لا أمزح.. انظر بنفسك!

فالتفت المساعد عابساً إلى الحجر فقرأ عليه: **على حافّة جهنّم**

فتراجع وهو يقول:
- أعوذ باللّه من جهنّم!.. ما هذا الفأل السّيء!

وأخذ المساعد ينتقي مكاناً مناسباً للصّعود وهو يقول:
- العمل معك ليس مسليّاً.. كالعادة قضيت اللّيل أبحث عنك.. هل قبضت على ذلك ال...

وأردف المساعد بملل:
- انتظر.. لا تجبني.. أعرف إجابتك: "فرّ في آخر لحظة"... كالعادة!.. نحتاج مفتّشاً آخر مثلك لنغلق السّجون نهائيّاً!

- لا داعي لإغلاقها.. من الممكن تحويلها إلى مبيتٍ للمعدمين مثلاً..

وصعد المساعد وهو يتّصل بالبلديّة ليصلحوا الطّريق في اللّحظة التي وقفت فيها أحد درّاجات الشّرطة وهرول الشّرطيّ إلى المفتّش قائلاً:
- سيّدي.. سيّدي المفتّش ليث!.. بحثنا عنك في كلّ مكان.. لم كنت خارج التّغطية بالكامل؟!.. هناك قضيّة استثنائيّة لك من الضّابط سليم!.. جريمةٌ يا سيّدي!
- مدهش!
- مدهش؟؟
- طبعاً.. لصٌّ آخر إلى اللّه!
- إلى اللّه؟.. ستقتله؟
- شيءٌ يشبه هذا!
- لكن.. المحاكم.. منظّمة حقوق الإنسان..
- القتل أمرٌ نسبيٌّ أيّها الشّرطيّ!.. أعني أنّي سأقتل المجرم الذي فيه وليس هو!

وركب المفتّش السّيّارة غير مكترثٍ بينما كان الشّرطيّ يضرب أخماساً في أسداسٍ وقد أكلته الحيرة فضرب المساعد ظهر الشّرطيّ قائلاً:
- المفتّش يمزح.. يمزح!

وانطلق المساعد بالسّيّارة بينما كان المفتّش بجواره يبتسم

بسماتٍ ماكرةٍ وهو يتذكّر شيئاً ما.. فقال له المساعد مغتاظاً:

- ما هذه البسمات العجيبة يا سيّدي؟.. بحثت عنك طيلة ليلة البارحة.. واضحٌ من عينيك أنّك لم تنم!
- لا شيء لأذكره لك!
- سيّدي.. أنا أعرف كلّ شيءٍ.. يعني إلّا طريقتك العجيبة في إقناع النّاس -أقصد المجرمين- كيف تقنعهم بالإقلاع عن الجريمة؟

وتبادل المساعد مع المفتّش نظرةً قبل أن يقول المساعد مازحاً:
- يوماً ما سأتنكّر على أنّني لصٌّ لأكشف حقيقتك!
- سيكون هذا مسليّاً.. متّى سيأتي هذا اليوم؟

ولكن في تلك اللّحظة شدّ المفتّش مكبح السّيّارة فأصدرت صوتاً رهيباً وكادت تنقلب بقسوةٍ حتّى وقفت أخيراً بعد أن أمسكها الحائط على اليمين..
فأمسك المساعد وجهه الدّامي بيدٍ وياقة المفتّش بيده الأخرى وأخذ يصرخ في وجهه:
- تريد أن تقتلنا يا رجل؟؟.. قل أنّك تريد التّوقّف وسأتوقّف فو....

ولكنّه لم يكمل كلامه.. منعه صوت سيّارةً منطلقةٍ كالسّهم احتكّت بشدّةٍ بهيكل سيّارة الشّرطة ممّا جعل تلك السّيّارة تجنح بعنفٍ إلى اليسار وتصطدم بالحائط مخلّفةً ناراً عظيمةً!

وأمام هذا المشهد ذهل المساعد وتجمّدت أطرافه بينما أسرع المفتّش واتّصل بالإطفاء ثمّ أخرج منديلاً وناوله للمساعد وبسمته الماكرة على وجهه وهو يقول:
- أقلت الحمد لله؟

فتلعثم المساعد وقال:
- الحمد لله.. الحمد لله.. كيف عرفت.. يعني.. كيف عرفت أنّها خارجة عن السّيطرة؟.. أنا ظننتها مجرد سيّارةٍ عابرةٍ كالعادة!

- طبعاً فالمزاح جعلك تغفل عن ملاحظةٍ بحجم النّملة.. أعني فقط أنّك لم تر سائق السّيّارة وهو يقفز منها باستماتة قبل أن تزداد سرعتها!

- أهذه ملاحظةٌ بحجم النّملة؟.. أراها بحجم الفيل!

فضحك المفتّش وقال:
- لا!.. قصدت أنّ السّائق البعيد كان يبدو وهو يقفز بحجم النّملة من هذا البعد!

وسمع الاثنان صوت صافرات سيّارتي الإطفاءٍ وقد بدآ بمهمّتهما بينما انطلق المساعد ثانيةً يحمد الله على السّلامة ويقول:
- أتظنّ أنّ السّائق كان يتقصّد قتلنا.. أم مجرّد صدفة؟
- لا ليست صُدفة.. لقد ضحّى بالصَّدَفَة ليقتلنا!

- الصَّدَفَة؟؟.. أيّ صَدَفة؟؟
- أقصد السّيّارة.. كما تركب السّلحفاة صَدَفتها!

فضرب المساعد وجهه وصرخ:
- يا ربّي!.. الآن وقت البلاغة والتّشبيه؟!

فضحك المفتّش ضحكةً مكتومةً وهو ينظر من النّافذة.. وفجأةً صرخ من النّافذة لأحد المشاة:
- في المرّة المقبلة قل بسم اللّٰه قبل أن تقفز!

فقال المساعد:
- ماذا قلت؟
- لا شيء.. كنت أكلّم صاحب السّيّارة التي انفجرت..
- ماذا؟.. سيّارة؟.. انفجرت؟.. أيّها المفتّش، إنّه المجرم الذي كان يستهدفنا!

- أحسنت.. يا لك من مساعدٍ ذكيّ!

وحاول المساعد أن يلفّ المقود ليمسك بالرّجل الذي مرّوا به ولكن حالت السّيّارات بينه وبين ذلك فأخذ يضرب المقود غضباً ويقول:
- لا أفهم؛ علامَ سمّوك مفتّشاً؟؟.. لأنك تفتّش عن طرقٍ لتنقذ المجرمين؟؟

فضحك المفتّش وقال:
- وأنا لا أدرِ علامَ سمّوك مساعداً!.. أراك معانداً!
- على الأقلّ أخبرني كيف عرفت تلك النّملة.. أقصد صاحب السّيّارة الذي رأيته وهو يقفز بحجم النّملة من ذلك البعد؟.. كيف عرفته عندما مررنا به الآن؟

- طبعاً سأعرفه.. فنظراته المصدومة التي جارت بسيّارتنا وقد نجت بعد أن ضحّى بسيّارته تقول لي: هذا أنا.. هذا أنا!

وفي تلك اللّحظة صدح صوت اللّاسلكيّ وهو ينادي على المفتّش فاضطرّ المساعد إلى معاودة السّير عابساً..

وقبل الظّهيرة وقفت السّيّارة عند البيت ودخل المفتّش مع رجاله ليفتّشوا المكان.. كان بيتاً كبيراً ذا طابقين.. وخرج ابن صاحب البيت كالح الوجه ليستقبل الشّرطة..

والتقت عيناه بعيني المفتّش المبتسم فاشتعل غيظاً قبل أن يدرك المفتّش أنّه ليس وقت الابتسام ويستعيد هيبته قائلاً:
- حضرتك ابن الضّحيّة؟
- نعم.. حضرتك المفتّش ليث الشّهير؟
- أظنّ ذلك!

فنظر المساعد سامي إلى المفتّش مصعوقاً بجوابه بينما كان الأخير يتفحّص المكان وصاحبه بعينيه قبل أن يقول:

- تفضّل وارو لي الحادثة بالتّفصيل..

وجلس الجميع في غرفة الاستقبال التي حصلت فيها الجريمة وزفر المهندس بلال ابن الضّحيّة ثمّ قال بائساً يجرّ الكلام:

- في بداية الأمر.. كنّا جالسين هنا في غرفة الاستقبال.. أنا وأبي.. بإمكانك أن ترى ذلك في تسجيل كاميرا المراقبة.. كنّا نتشاجر ولاحظت أنّ عينا أبي كانا يشعّان بالقلق وطبعاً تسرّب القلق إليّ رويداً رويداً قبل أن نسمع صوت رسالةٍ على هاتفه..

وبشكلٍ تلقائيٍّ نظر إلى الرّسالة وانتفض واقفاً يتلفّت عندما اخترق الجوّ صوت رصاصةٍ حطّت في.. في...

وصمت المهندس قليلاً قبل أن يبتلع دموعه ويضيف وهو يدلك أنفه:
- وكأنّ الرّسالة كان هدفها أن تجعله يقف حتّى يصبح في متناول الهدف.. طبعاً لم نجد للمجرم أثراً والجيران لم يلاحظوا شيئاً غريباً وحتّى الرّسالة كانت اعتياديّة: **استمتع بعروض الباقات المجّانيّة.....**

- فقط؟.. من المرسل؟
- شركة الاتّصالات الخاصّة كالعادة..

فأضاف أحد الشّرطة وهو يعطي الجوّال للمفتّش:

- وقد تأكّدنا من شركة الاتّصالات أنّها أرسلتها آليّاً في الموعد المعتاد كالعادة تماماً!

فنظر المفتّش لثانيةٍ دون اكتراثٍ وأعاد الجوّال قائلاً:
- ربّما ليست الرّسالة التي جعلته يقف.. كانت مجرّد مصادفة!

وبسرعة البرق تناول المفتّش الجوّال ثانيةً من يد الشّرطيّ المرتبك وبحث بسرعةٍ وما هي إلّا ثوانٍ قبل أن ينطلق صوت الرّسالة من الهاتف والمفتّش يضحك ويقول:
- خدعةٌ بسيطة!

ونظر الجميع إلى المفتّش مستفهمين بينما بادلهم النّظرات يثير فضولهم ثم قال:
- في أيّ ساعةٍ كانت الحادثة؟
- الواحدة إلّا ربعاً تقريباً!

فرمى المفتّش الجوّال محلّقاً قرب السّقف ثمّ إلى يدي المهندس بلال الذي تلقّفه بيديه مرتبكاً جدّاً وقد أنقذ الدّليل بأعجوبةٍ ونظر إليه يقرأ ببطء:
- المنبّهات.. الواحدة إلّا ربع.. مرّة واحدة فقط.. والنّغمة.. والنّغمة نفسها نغمة الرّسائل!

فرفع المهندس رأسه مصعوقاً وحكّ أنفه قائلاً:
- وأنا ظنّنتها الرّسالة.. ولكن لم كان أبي يحاول تضليلنا بهذه

الطّريقة؟؟.. ولم كان متواعداً مع هذا المجرم.. هذا يزيد الأمر سوءاً يا سيادة المفتّش!

لم يعره المفتّش اهتماماً بل ابتسم ووقف عاقداً يديه خلف ظهره ينظر من النّافذة -التي كسرتها الرّصاصة- لثوانٍ قبل أن يقول:
- ليس شيئاً مهمّاً..

وانصرف بينما أسرع المساعد لينظر من النّافذة ويتفحّصها وهو يتمتم:
- نصف الأدلة عنده غير مهمّة.. والنّصف الآخر لا يستحقّ الاهتمام.. يا لمفتّش الفشل هذا الذي بُليت به!

ولكن في تلك اللّحظة سمع المفتّش يقول:
- مهندس بلال.. قضيّتك هذه لا أدلّة فيها.. حاول أن تخترع لي دليلاً!

وصعق المساعد لهذا التّعبير بينما أجاب المهندس:
- أخترع.. تقصد أن أتذكّر.. يعني أن..
- يعني: اخترع موضوع تعبير عن حياة أبيك!

- نعم.. أبي كان.. كان مهندساً عظيماً....
- معروفٌ هذا المقطع!.. فهو الذي بنى سور الصّين العظيم!

فابتلع المهندس غضبه قائلاً:
- بل هو الذي بنى فندق ماريانا الفاخر.. وفندق...
- تسرييييييع!... الآن وصلنا إلى عند "وكانت علاقاته..."

وظهر الضّيق جليّاً على وجه المهندس فأمسك يديه بشدّةٍ وقال:
- إنّها قضيّةٌ غريبةٌ فعلاقاته مع الجميع ممتازة.. لم أعرف أنّه تشاجر مع أحد طيلة حياتي.. كان هدفه النّجاح وقد ضحّى لأجله بكلّ شيءٍ وحقّقه في النّهاية!
- ألف.. ألف مبروك أيّها المهندس.. تقبّل تهانيّ أرجوك!

وانصرف المفتّش مبتسماً بينما أمسك المساعد يديّ المهندس بلال محاولاً أن يكبحه وهو يقول له:
- هدّئ.. هدّئ من روعك يا سيّدي.. ماكرٌ ولكنّه مفيدٌ في النّهاية.. ماذا نفعل؟!

وفي المساء خرج المساعد من مكتب المفتّش وهو يضرب أخماساً في أسداس ويفكّر:
- غريب أمر المفتّش!.. إنّه لم يكترث بالقضيّة أكثر من العادة.. تراه هل وجد الحلّ وهو يتظاهر بأنّه لم يفعل؟

وحكّ المساعد رأسه ثمّ ضرب كفّيه قائلاً:
- لا بدّ أنّه يريد أن يسهّل هرب المجرم كالعادة.. حسناً سأراقبه!

وهكذا اتّخذ المساعد مخبئاً في الظّلام وجلس يراقب وهو

يحتسي فنجان القهوة تلو الآخر حتّى يستطيع أن يسهر ليلةً أخرى بعد أن لم ينم ليلة البارحة..

وعند السّاعة الواحدة ليلاً أطفأ المفتّش ضوء مكتبه وخرج وهو يحدّق بجوّاله ثمّ تحسّس مسدسه وأوراقه ومشى خطوتين قبل أن يقول بصوتٍ خافتٍ:
- ما كلّ رائحة القهوة هذه؟!

وتلفّت يبحث عن المصدر عندما تراجع فجأةً وقال لنفسه:
- لا وقت لهذا الآن!

وركض نحو الخارج مسرعاً بينما انسلّ المساعد وراءه يلحقه بخفّةٍ ورآه يركب سيّارته وينطلق مسرعاً وركض المساعد خلفها قليلاً قبل أن يتأكّد أنّه متّجهٌ نحو بيت المهندس بلال وبسرعةٍ ركب المساعد أحد الحافلات اللّيليّة ولحق المفتّش حتّى استطاع أن يراه وهو يدخل البيت..

ومن نافذةٍ إلى نافذةٍ صار المساعد يدور عسى يسمع شيئاً حتّى وجد الصّوت أخيراً وهو يزحف تحت أحد النّوافذ المشقوقة.. كانت صوت المهندس بلال مدافعاً:
- أقسم لك يا سيادة المفتّش.. كان مجرّد خطأ.. لا أريد أن أخسر سمعتي وعائلتي وسنين من عمري لمجرّد خطأ لا ذنب لي فيه.. كم أنا آسفٌ لما حدث لصديقي المرحوم.. آآآه!

وأجاب المفتّش بهدوء جعل المساعد يلصق أذنه بالنّافذة ليستطيع أن يسمع بلا فائدةٍ بينما أجاب المهندس:
- تعني أنّني إذا فعلت ذلك فلن ترفع أمري؟

وبعد ثوانٍ أجاب ثانيةً بصوتٍ ممتنٍّ:
- أشكرك يا سيّدي!.. بل لا أعرف كيف أشكرك!.. جزاك اللّه خيراً عنّي!.. حسناً، المهندس بلال محتجزٌ في عيادتي.. إنّه ابن صديقي المرحوم وأنا لم أؤذه أبداً!

وبعد ثوانّ أجاب أيضاً:
- أعلنوا إعادة المطار إلى الخدمة منذ ساعتين وستنطلق الطّائرة الأولى بعد ساعةٍ، أحتاج فقط إلى السّاعة السّادسة صباحاً وسأكون في مأمنٍ خارج المطارات خارج البلاد.. وأقسم بعد كلّ هذا العذاب أنّي لن أمسك مسدّساً ثانيةً!

وأخيراً سمع المساعد:
- المبلغ سيدفعه لك ابني.. وأشكرك لإخباري عن الصّيام.. مجدّداً أشكرك يا سيّدي من كلّ قلبي.. أكثر اللّه من أمثالك!

وما هي إلّا دقائق قبل أن يسمع المساعد صوت الباب الخارجيّ ويرى المهندس يركب سيّارته ويسرع مغادراً وهناك انبرى المساعد وركض إلى سيّارة المفتّش فوجد مفتاحها معلّقاً فيها كما توقّع بسبب استعجال المفتّش!
وانطلق بها كالسّهم ليلاحق بها سيّارة المهندس وهو يتمتم:

- لا أيّها المفتّش ليث، لن يفرّ في آخر لحظةٍ كالعادة!!

ووصلت السّيّارتان إلى الأوستراد ولكنّ المهندس كان مسرعاً كالسّهم في سباقه المصيريّ بحيث أنّه لم ينتبه أنّ هناك من يلاحقه وبذل المساعد بنزين السّيّارة وهو يتمتم غاضباً:
- آهٍ.. لو كانت سيّارة الشّرطة حتّى أشعل صافرتها!

وبعد خمس دقائق وصل المهندس إلى المطار فترك السّيّارة ودخل المطار مسرعاً..
وبعد دقيقةٍ كان المساعد في المطار يبحث عن طريده بين المسافرين، وحين لم يجده لم يتعب نفسه بل ذهب إلى شرطة المطار من فوره ودخل مبرزاً هويّته العسكريّة عندما...

فجأةً انقضّ عليه رجال الشّرطة وأوثقوه وأخذوه إلى أحد سيّارات الشّرطة وهو يصرخ ويعترض بلا فائدة.. وما هي إلّا أقلّ من ساعةٍ عندما صار في زنزانة القسم وهو يضرب القضبان ويعترض حتّى أظلم المكان وتركوه لوحده يصرخ ولا يجد مجيباً فجلس يغلي من الغضب وهو ينظر إلى ساعته ويتمتم:
- لقد أقلعت الطّائرة الآن.. ليتني بحثت عنه وأوقفته بنفسي بدلاً من أن أطلب مساعدة أولئك النّاس.. لا بدّ أنّ المفتّش قد رآني وأنا أركب سيّارته.. عليّ الاعتراف أن معارضة المرء رئيسه في العمل ليست أمراً سهلاً أبداً..

وأسند رأسه إلى الوراء وزفر قائلاً:
- حسناً.. هنيئاً لك يا زوجتي، فقد زوجك عمله.. لا بدّ أنّ المفتّش سيطردني الآن.. ماذا سأفعل؟.. لا أجيد شيئاً آخر.. ليتني تعلّمت النّجارة من جدّي...

وطالت ساعة اللّيل على المساعد الذي كان يتقلّى على نار الأفكار عندما سمع صوت تثاؤبٍ قريبٍ فصوّب نظره إلى القضبان ورأى ضوء كشّاف جوّالٍ يقترب منه.. وسرعان ما ظهر رجلٌ أمام القضبان فوقف المساعد وجهاً لوجهٍ مع المفتّش ليث الذي كان مبتسماً كعادته قبل أن يقول:
- طابت ليلتك.. ظننت أن اللّيلة باردةٌ ولذا أنت بحاجةٍ إلى بطّانيّة.. صحيح؟

ومدّ المفتّش البطّانيّة إلى المساعد الذي أجاب بغيظ:
- بل أنا بحاجةٍ إلى العودة إلى بيتي.. بأيّ حقٍّ تسجنني؟
- بحقّ الدكتور زياد الذي كنت تريد الإيقاع به!

- ماذا؟.. من هذا الدّكتور زياد.. لا بدّ أنّك مخطئ!.. أنا لا أعرف شخصاً بهذا الاسم أصلاً!
- إذاً لم كنت تلاحق شخصاً لا تعرفه بسيّارتي؟.. وتقول لي أنّه هذه المرّة لن يفرّ في اللّحظة الأخيرة؟

- ماذا؟.. سمعتني؟.. هل هناك كاميرا مراقبة في سيّارتك أيضاً؟
- طبعاً، أيعقل ألّا يضع المفتش ليث كاميرا في سيّارته رغم أنّ

هذا في ال 'سي في' خاصّته؟!
- ال 'سي في'؟.. وهل يضعون كاميرات مراقبة السّيّارات في ال 'سي في' أيضاً؟

فضحك المفتّش وقال:
- بل يضعون خبير تكنولوجيا ومتخصّص في علم النّفس!
- ماذا تقصد؟
- أعرف أنّك سمعت كلّ شيء ولذلك سأشرح لك.. كما قلت في النّهار: القضيّة لا أدلّة فيها لأنّ المجرم لن يدلّنا على إدانته بطبيعة الحال..
منذ الوهلة الأولى أدركت بخبرتي في علم النّفس أنّ نظرات المهندس بلال الحزينة كانت نظرات الذّنب والقلق وليس الحزن ولذلك لم أكترث بكلامه الملفّق..

لو لاحظت: كان يحكّ أنفه كلّما تكلّم ويهرب بعينيه وهذان أكبر دليلٍ على أنّه يخفي شيئاً في علم النّفس.. أمّا موضوع التّعبير الذي فاجأته به فقد كان دليلاً على جهله بالمهندس المرحوم..

فقد تلعثم ورفع عينيه إلى اليسار تارةً وإلى اليمين أخرى وهو الدّليل على أنّه لا علم له بقطاع الهندسة فكان يكذب ويبحث عن أيّ معلومةٍ عن صديقه المرحوم!

- هل أفهم من كلّ هذا أنّه المجرم أيّها المفتّش؟
- ليس بالضّبط.. أولاً هذا الرّجل الذي نتكلّم عنه هو الدكتور

زياد وليس المهندس بلال وقد كان متنكّراً على هيئته فقط..
وثانياً سأحكي لك القصّة:

كلا المهندس المرحوم والدكتور زياد صديقان قديمان وقد اعتادا على التّنافس في الرّمي بالمسدّسات سرّاً..
وبالفعل تواصلا واتّفقا على ذلك اليوم في السّاعة الواحدة..

- ولذلك كان المنبّه مربوطاً على السّاعة الواحدة إلّا ربع..
- بالضّبط.. ولكن الدّكتور كان قد وصل بيت صديقه مبكراً..
وعندما طرق الباب ولم يسمعه أحد أخذ يدور حول البيت في حديقته ليرى إذا كان هناك أحدٌ في البيت أم لا..

وهناك بجوار نافذة غرفة الاستقبال تلك سمع صوت صديقه المهندس وهو يصرخ ويتشاجر مع ابنه.. فحاول أن يناديه أو يلفت انتباهه بلا فائدة حتّى أخرج مسدّسه وأطلق إلى السّماء وهنا حصلت الصّدفة والكارثة في لحظةٍ واحدة..

وتثاءب المفتّش ثمّ أردف:
- كالعادة أطلق المسدّس فجأةً رصاصةً ثانيةً والدّكتور ينزل يده ،فكسرت الرّصاصة الزّجاج وأصابت المهندس الذي رنّ منبّهه في نفس اللّحظات كما ظهر في التّصوير قبل أن يقف متلفّتاً باحثاً عن صاحب الصّوت.. وهكذا أصابته الرّصاصة الطّائشة وانتهى عمره.. يرحمه اللّه!

- كم ألف مرّة نبّهناهم على خطورة إطلاق الرّصاص الطّائش؟!.. على أيّة حال ما دليلك على مصداقيّة هذه القصّة أيّها المفتّش؟.. المجرمون يلفّقون أفضل من هذه القصص لينقذوا أنفسهم!.. ما الذي يثبت أنّه أطلق تلك الرّصاصة مخطئاً وليس قاصداً!

- الدّليل أنّ الرّصاصة كانت ستمرّ فوق رأس المهندس بنصف متر لو لم يقف.. وقد كان من الأسهل لو كان قاصداً أن يصيبه فوراً وهو جالس فقد كان في متناول المسدس بكلّ سهولةٍ..

ومن ناحيةٍ أخرى كان بإمكانه أن يتخلّص من المهندس بلال في تلك اللّحظة فوراً بدلاً من احتجازه في عيادته سالماً واحتمال مسؤوليّة ذلك.. وهذا إضافةً إلى الدّلائل النّفسيّة التي رأيتها عليه والتي تمثّل عندي أقوى دليلٍ!

- وهكذا يهدر دم المهندس المرحوم بلا..؟؟؟

- لا أيّها المساعد.. لقد شرّع الله الديّة وصوم شهرين متتابعين لمن قتل خطأً.. وبالفعل تجاوب معي الدكتور بسهولةٍ فقد قبضت الديّة من ابنه منذ قليل وقد قال أنّه سيصوم بالفعل.. هذا هو القصاص الحقّ أيّها المساعد.. أمّا السّجون فهي تحوّل الطّيبين إلى مجرمين.. فلا داعي لنزجّ الطّيبين فيها بلا ضرورة..

- حسناً يا سيادة المفتّش، قل لي: أأنت في خدمة الدّين أم

القوانين؟!

فابتسم المفتّش وقال:
- في خدمة قوانين الدّين!

ثمّ وضع يده على فمه متثاءباً وقال:
- تصبح على خير.. هذه اللّيلة الثّالثة التي لم أنم فيها.. لكن صحيح!.. لم أعطك هذه..

وناول المفتّش البطّانيّة للمساعد ومعها قطعة حلوى قائلاً له:
- نم جيّداً.. غداً عندك عمل!

وغادر المفتّش ومعه الضّوء وعاد المساعد إلى الظّلام بعد أن التهم الحلوى في لقمتين واستلقى لينام وهو يفكّر:
- الحمد لله؛ لم يطردني.. وقد استفدتّ من مراقبته وعرفت حقيقة الأمر أخيراً!.. ترى ما السّبيل كي أجعله يروي لي قصّة طارق أيضاً؟

وفي الصّباح عاد كلّ شيءٍ إلى مكانه وعاد المساعد إلى عمله ورأى المهندس بلال الحقيقيّ وهو غاضبٌ لأجل أبيه ويصرخ على المفتّش:
- ماذا يعني أنّه فرّ من البلاد في آخر لحظةٍ؟!.. كيف تركتموه يفعل ذلك؟.. وتسمّون أنفسكم شرطة؟!

وابتلع المساعد ضحكته بينما أجاب المفتّش بهدوء:
- عزيزي المواطن.. نحن الشّرطة نبذل ما في وسعنا لنقيم العدالة ولكن لا يعني أنّنا لسنا بشراً مثلكم في النّهاية.. وكما قلت لك الرّجل يقدّم لك شديد اعتذاره عن هذا الخطأ ويسلّمك الدّيّة خاضعاً..

وسكت المفتّش لحظةً ثمّ قال:
- على أيّة حالٍ احتسب والدك عند الله وادعو لوالدك واقرأ له القرآن عسى يكفّر هذا عن شجارك مع والدك في آخر لحظات حياته..

فزمجر المهندس بلال قائلاً:
- يبدو أنّك أخطأت ودخلت قسم الشّرطة عوضاً من مسجدك يا حضرة الشّيخ!

وأخذ نقوده وخرج غاضباً فهتف المساعد:
- أنا معه في هذا!

فرمقه المفتّش بنظرةٍ ضاحكةٍ وارتشف قهوته وهو يقول:
- آسفٌ من أجلكما.. ليتكما تعلمان أنّ الهويّة العسكريّة لا تنفع على الصّراط يوم القيامة!

وسكت الاثنان قليلاً قبل أن يقول المساعد:

- أنت أغرب رجلٍ رأيته في حياتي!.. تقف هذا الموقف البغيض وتبدو فاشلاً بدلاً من أن تكون البطل الذي كشف القضيّة بسهولةٍ وقبض على المجرم قبل أن يفرّ؟!

فضحك المفتّش ضحكةً مكتومةً قبل أن يقول:
- وماذا يهمّني؟!.. الله يعلم أنّني أقيم الحقّ في حقيقتي ولذا حتّى رؤساءي لا يستطيعون طردي من منصبي؛ فهم يعلمون أنّه حتّى لو هرب المجرم من المفتّش ليث في آخر لحظةٍ فهم لن يسمعوا باسمه ثانيةً بإذن الله!

وبعد أيام، عندما انتهى الدّوام كان المساعد وهو يكتب الأوراق يراقب المفتّش مستغرباً وهو يرشّ نفسه بالعطر ويسرّح شعره على المرآة وأخيراً يعيد تنسيق ربطة عنقه.. وهنا انفجر فضول المساعد فقال مازحاً:
- ألف مبروك!.. اليوم عرسك أليس كذلك؟

فابتسم المفتّش وقال:
- كنت أنتظرك كي تقولها فقد عرفت من عينيك على المرآة أنّك لن تستطيع السّكوت!

- تقبّل تهانيّ!
- لا لا.. ليس عرسي.. إنّه عرس صديقي طارق!
- حقّاً؟.. أرجو لك ليلةً هنيّةً!

وعاد المساعد ليكتب الأوراق عندما رفع رأسه فجأةً وصاح:
- لحظة!.. طارق.. من طارق؟

فاحمرّ وجه المفتّش من الضّحك وهو يقول:
- صديقي.. ألا تعرفه؟
- أنا أعرف المجرم طارق الذي فرّ منذ أيّامٍ في آخر لحظةٍ كالعادة.. لا تقل أنّه.. أنّه...

وانتفض المساعد واقفاً والغضب يقطر منه وصاح:
- وتحضر عرسه أيضاً.. هذه.. هذا.. هذا كثيرٌ أيّها المفتّش!
- حسناً.. تفضّل واقبض عليه إذا كان عندك دليلٌ أيّها المساعد المحترم.. فكما تعلم المحاكم لن تقبل منك دونما أدلّة!

وتلعثم المساعد وقال:
- كيف وقد طمست أنت كلّ الأدلة؟!.. إمّا أن تحكي لي ما حدث بينكما الآن أو أنّي لن أحتمل العمل معك بعد الآن!.. اسمعوا اسمعوا: مفتّشٌ ويحضر أعراس المجرمين.. هذا ما كان ينقصنا!!!!

فانفجر المفتّش ضاحكاً حتّى ارتمى على الكرسيّ وقال:
- أتعلم أنّ كلماتك هذه مسليّةٌ بالنّسبة إليّ أكثر من الحفل!.. في الواقع أنا لا أعرف طارق هذا ولا قريته ولكنّه من شدّة فرحه أصرّ عليّ بشدّةٍ على أن أحضر عرسه حتّى قررت الذّهاب في النّهاية!

- ما هذا الودّ يا حضرة المفتّش.. لم أسمع طيلة حياتي عن مجرمين بهذه الطّيبة إلّا عندك.. قل لي هل أنت ساحر؟

- على العكس أيّها المساعد.. الشّرطة في خدمة الشّعب!
- يعني.. هل ستحكي لي القصّة أم ماذا؟

فتنهّد المفتّش ببسمةٍ ماكرةٍ وأجاب:
- الأمر بسيط.. الفلّاحون على الأغلب أناسٌ بسطاء وهم لا يقدمون على الجريمة إلّا لسبب.. فببساطةٍ سألته عن السّبب فأخبرني بحزنٍ أنّه يرغب بالزّواج من امرأةٍ ولكنّ والدها شرط عليه شروطاً من سكنٍ وسيّارةٍ وكذا بالدّولارات ولذا لجأ إلى الجريمة وحاول أن يخطف ابن الشّريف مرّتين.. الأولى كشفت نواياه والثّانية كشفناه بها كما تعلم..

- وكيف حلّت مشكلته الآن؟.. دفعتها من جيبك الخاصّ أيّها المليونير؟ ؟
- مليونير؟!.. سامحك اللّه.. صديقي صاحب جمعيّة 'إخواننا'، جزاه اللّه خيراً، مستعدٌّ دائماً لمساعدة المحتاجين!

فهدأ المساعد وقال:
- وهكذا ستترك طارق؟.. ماذا لو احتاج إلى المال ثانيةً.. سيعود للسّرقة!

- ولذلك سأحضر العرس.. حتّى يعلم أنّه دائماً تحت المراقبة كما أخبرته بصراحةٍ!.. أخبرني الآن: أليس حلّ المشكلة بهذه الطّريقة السّلميّة أفضل من جعله يتعفّن في السّجون سنين وسنين؟؟؟

الآن نستطيع أن نقول: الشّرطة في خدمة الشّعب!!

ونهض المفتّش مودّعاً المساعد ببسمةٍ وسيمةٍ وغادر وهو يرتّب سترته بينما كان المساعد يشيّعه بعينيه مُفْحَماً!!!

تمّت بفضل الله العظيم...

